الفصل السابع

الــزواج هو أساس التربية

"الزوج الجيد الذي يعرف كيف يعامل زوجته بما أمره به الله، هو أب جيد أيضًا، فكل لمسة حانية ، وكل التفاتة عطف ، وكل لحظة تفاهم بين الزوجين ، هي خير مساعد لتربية أبناء صالحين"

قبل أن يبدأ ملهمي بالحديث عن الزوجة والزواج دعوني أحدثكم عما بداخلي فقد كنت أحلم بزوجة تفهمني وأفهمها ، تحبني وأحبها، ترعاني وترعى أبنائي ، وأعرف حقها وأرعاها ، وقد تخيلت أني قد وجدت ما أريد عندما رأيت زوجتي ، فتزوجتها ، وبعد الزواج شعرت بالحب تخبو جذوته قليلاً ، وبعد مجيء الأبناء أحسست أن بيننا فجوة كبيرة ، وأنني لا أعرفها ولا تعرفني ، لا أسمعها ولا تسمعني ، والأولاد هم كل شيء ، لم يعد أي شيء لنا بل صار كل شيء لهم .

سألني ملهمي قائلاً :

" هل فكَّرت يومًا في استعادة الوئام والحب داخل البيت ؟"

obeikandl.com

" إنني أتمنى . ولكن كيف ؟"

" أن تعرف أنَّ الحب تضحية ، وأن تنسى ما رسَّخه الإعلام في أذهاننا ، وتلك القصص الخيالية عن الحب من أول نظرة وما إلى ذلك ، فأول نظرة تحمل الإعجاب فقط ، أما الحب فهو أكبر من كل ذلك. الحب تضحيات ، مودة ورحمة وعطف ، واعلم أن ما لا يرضى عنه الله مآله إلى زوال ، الحب والرحمة والمودة داخل البيت من نسمات الجنة ، ولا نصل إليه إلا باتباع ما أصَّله لنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما الحب الزائف الذي تراه يطل في كل مكان حولنا هو من زفرات النار"

" هل الحب يموت ؟"

" كلا ، لكنه قد يخبو وعلينا أن نشعل جذوته باستمرار ، وأكبر عامل يساعد على ذلك ما قلناه سابقًا ، وما نرسخه هاهنا ، وهو أن الأب والأم هم أهم من في البيت ولابد أن يهتما بأنفسهما قبل اهتمامهما بالأبناء ، فكل فعل يفعلانه ، وكل اتفاق يقومان بتنفيذه له أعظم دور في تربية الأبناء"

obeikandl.com

" وكيف نشعل جذوة الحب مرة أخرى ؟"

" المرأة كائن رقيق، تتدغدغها الكلمات الناعمة ، وتسحرها العبارات الحالمة ، قد تبيع الدنيا لرجل كاذب استطاع اللعب بمشاعرها. لذلك قال الرسول : "استوصوا بالنساء خيرًا" . وأفضل ما يفعله الزوج أن يستوصي بزوجته خيرًا ، فالكلمة الرقيقة ، والحضن الدافئ ، والهدية الصادقة ، من أعظم الطرق للحفاظ على رباط الزواج بينكما، بل وإشعال الحب ليملأ البيت بالرحمة والمودة. الحضن الدافئ يا صديقي الذي يشعرها بأنها بين يدي رجل بحق ، حضن يدلها على قوتك – الشخصية لا البدنية – ، كما يدلها على دفء مشاعرك، تستطيع أن تجعلها توافق على أي شيء وهي بين أحضانك"

" لقد أعدت لذاكرتي بداية زواجنا ، لكني لا أبالغ عندما أقول أن الأمور قد اختلفت كثيرًا الآن"

"الهدية يا صديقي تلهب الحب. متى آخر مرة هاديت زوجتك؟"

تنحنحت وقلت والخجل يغطي وجهي " لا أذكر"

" إذن اشتر لها هدية ، ولتكن الهدية شيئًا تحبه زوجتك وتتمناه، لا ما تحبه أنت وقد يكون عكس هواها ، وليس هناك أوفر من الورود، ولا أكثر تعبيرًا منها على الحب .

كن عطوفًا معها ، واملأ البيت مرحًا وسرورًا ، واجعل الحنان هو ما يغلف علاقتكما ، لا تجعلها خائفة منك ، فإن ذلك دليل على فظاظتك.

لقد جعل الله القوامة للرجل ، والقوامة معناها أن تكون رجلاً بحق، قويًا حنونًا في نفس الوقت ، ومراعاة المولى في زوجتك أمر واجب ، فإن الرسول قد قال " إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها"، فحتى إذا ساءت الأمور فلا يجب على الرجل أن يظلم .

وينبغي على الرجل أن يسمع زوجته فقد كان الرسول يفعل ذلك وقد روت السيدة عائشة أنه سمعها وهي تروي له حديثًا دار بين إحدى عشرة نسوة كل واحدة منهن كانت تذكر صفات زوجها . وقد سمع لها قدوتنا ، وتجاوب مع حديثها الطويل ، فلابد من أن تسمع لزوجتك حديثها"

obeikandl.com

" لقد صار الكلام بيني وبين زوجتي في الضروريات فقط ، وهو أمر لست راضيًا عنه بكل صدق ، فكيف أعود لسابق عهدي ؟"

" بالهدية أولاً ، ثم اجلس وأخبرها أنك عازم على التغيير ، وأنه لابد من تقوية رباطكما مرة أخرى " .

" وماذا بعد ؟"

" اتفقا على رؤية محددة لحياتكما ، ماذا تريدان من تلك الحياة، ورتِّب أفكارك وأفكارها لتتكاملا"

"لنتكامل ؟ .... ما أصعب هذا التعبير بالرغم من جماله وروعته ، وبالرغم من سعي الجميع إليه ، إلا أنه في عالم اليوم صار أقرب ما يكون إلى المستحيل"

" إنَّ الله سبحانه قد شرع الزواج لحكمة بالغة ، وجعل كلاً من الزوجين سكنًا للآخر ، وجعل المودة والرحمة بينهما أساس الحياة ، ليتربى الأولاد في ظل هذا المناخ الجيد ، وعلى أثر ذلك سيكون لهم بالغ الأثر في المجتمع"

" والعكس بالعكس ، فكل إناء بالذي فيه ينضح"

obeikandl.com

" بالفعل ، الأبناء الذين يعيشون بين آباء متفاهمين ، بالتأكيد ستنشرح صدورهم للحياة أكثر من غيرهم "

" وكيف أضع اتفاقًا ؟ هل لي بمثال "

" هل قرأت قول الله تعالى ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ . إن الحكمة من أخذ الميثاق هي ارتباط الإنسان بما قد تعهَّـــد به .

لذلك ينبغي على الزوجين أن يتعاهدا لكي يذكرا بعضهما ذلك العهد ، لينصلح حالكما ، وحال أبنائكما وأنه لابد من وضع ميثاق للأسرة ، أسوة بما فعله الله معنا كما ذكرنا سابقًا ، وأخبرها أن هذا سيعيد شمل الأسرة من جديد ، وسيجعل البيت سعيدًا ، والتجربة خير دليل "

" وإن لم تقتنع ؟"

" في البداية سيكون عدم الاقتناع هو السائد ، لكنك ستكسر حاجزًا نفسيًا كبيرًا كان بينك وبينها بحسن معاملتها، الإنسان منا عندما تختلف معاملة الناس له يشعر بذلك وكلما كانت المعاملة حسنة

كلما اقتنع ورضخ وأذعن لها ألم تسمع قول الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فلطالما استعبد الإنسان إحسان

وسيرة الأنبياء والصالحين تخبرنا بذلك ، فكلما كانت معاملتك مع غيرك كريمة عطوفة ، كلما احترمك الناس واقتنعوا برأيك ، وبالأخص المقربون ، لكن مشكلتنا الأبدية تكمن في اعتقادنا بأن الناس من حقنا، وتحت أمرنا . فتجدنا نهمل هذا ونلوم ذاك ، نخطئ في حق هذا ، ونظلم ذاك ، ولم يفكر واحد منا أن الناس سواسية كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكما قال أيضًا " حب لأخيك ما تحب لنفسك " .

" وماذا عن المشاكل اليومية والخلافات التي قد تحدث بيننا؟"

" لقد تطرقت لنقطة في غاية الأهمية ، وسوف أعطيك فيها حلاً جميلاً"

قاطعته بإشارة من يدي وأنا أقول : " لا تقل لي كلامًا على غرار – عليك ألا تختلف أمام أبنائك ، أو اجعل اختلافاتك مع زوجتك داخل الغرف لا أمام الأبناء فهذا الكلام لا أعرف من يفعله ، ولا حتى كيف يفعله"

"بالعكس ، إنني أقول لك اختلف مع زوجتك أمام أبنائك، إن لاختلافك مع زوجتك أمام الأبناء فائدة عظيمة"

عقدت الدهشة لساني ، وارتسم الذهول على وجوهي ، وقلت : "ماذا ؟! إنك تستمر في إبهاري بما تقول ، ولكن ليس إلى هذا الحد ، وكيف يكون هناك فائدة لاختلافي أمام أبنائي ؟"

"إن من يقول لك لا تختلف أمام الأبناء يحرم أبناءك من كنز عظيم ألا وهو ذلك الدرس العظيم الذي يتمثل في معرفة كيفية الخلاف القائم على احترام الآخر، وأعطيك أسلوبًا تتبعه مع زوجتك"

"أخبرني ... فكل ما تقوله هو من أفضل ما سمعت في حياتي، وإنني لأتمنى أن أفعل كل ما تقوله حرفيًا"

"اتفقنا أنك ستهدي زوجتك هدية ، وهذه الهدية ستكسر حاجزًا بينكما كبيرًا كما قلنا ، ثم تبدأ في عقد الاتفاق معها عن كل نواحي حياتكما ، واتفق معها على كيفية الاختلاف القائم على تقبل الآخر واحترام الغير"

" ستظنني مجنونًا ، قد فقدت عقلي "

" في البداية ، ثم عندما ترى منك مثالاً صالحًا وقدوة ستتعلم منك "

" ولكن كيف نتفق على مبادئ الاختلاف القائم على احترام الغير "

" صديقي العزيز إن المشاكل التي تقع بين الزوج وزوجته تبقى مشاكل بسيطة في حدود ضيقة ، ويمكن السيطرة عليها مالم يبدأ أحد الطرفين في انتقاص قدر الآخر ، أليس كذلك ؟"

عقدت حاجبي مفكرًا ، وتمتمت وكأن عقلي يتحدث ، بالفعل أي مشكلة تنتهي بانتقاص الآخر ، هذا هو جوهر المشكلة . لذا قلت : " نعم ، معك حق "

" لذا سيكون أول قاعدة لاختلافكما هي : لن ينتقص أحدنا الآخر ، فكل واحد منا إنسان قد كرمه الله . "

" قاعدة جميلة تحفظ لكل واحد منا حقه "

" والقاعدة الثانية : خلافنا يراه أبناؤنا لذا هذه فرصة لنربيهم

obeikandl.com

على احترام الآخر ، ولنعلمهم كيف يختلفوا"

" إنها قاعدة في غاية الأهمية ، أن تتخيل أن أبناءك يراقبونك ، وأنك تعلمهم سيدفعك دفعًا لأن تحاول أن تظهر بمظر لائق"

" بالفعل ، والقاعدة الثالثة : أن لا يقوم أحدكما غضبان حتى لو لم تتفقا على ما يرضيكما ، بمعنى قد تنتهي المناقشة دون الوصول لحل يرضي الطرفين لكن لابد أن يقوم الطرفان وكل واحد راض عن الآخر"

"أتعرف يا مراد لو عمل الجميع بتلك القواعد لانصلحت حياتنا، إنَّ احترام الآخر هو ما ينقصنا بصدق ، فمعظم اختلافاتنا تنشأ من عدم احترامنا لبعضنا وإنني لأتعجب من فهمنا المغلوط ، والذي نعيش به تلك الحياة ، ويقودنا إلى تلك الطرق المسدودة بيننا وبين بعضنا البعض"

"وهذا ما يمثل عقبة كبيرة في تحسين علاقاتنا مع الآخرين ، فالشخص المقبول اجتماعيًا هو أكثر الأشخاص احترامًا لغيره ، وحُسن الخُلق ليس سهلاً على كل حال لذا قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم " أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقًا " ، وذلك لأن حسن الخلق من أصعب الأمور"

" وبعد اتفاقي معها على ما سبق هل بقي شيء آخر ؟"

"أن تتفق معها على دوركما تجاه أبنائكما ، فالتربية لابد أن يقوم فيها كل منكما بدوره فهناك أمور تقوم بها زوجتك وأمور تقوم بها أنت"

" هل تعلم يا عزيزي أنني بحاجة لذلك بالفعل فهناك الكثير من الأمور التي كنت أختلف مع زوجتي فيها في تربيتنا لأبنائنا ، ولا تساعدنا ثقافتنا القاصرة على تحديد أدوارنا بدقة"

" إنك لا تستطيع تحديد الأدوار بدقة متناهية تكفل لكل منكما فهم دوره بالضبط ، لكن المطلوب هو أن تتفهما لطبيعة دور كل واحد منكما ، وذلك حتى تتكامل أدواركما لتتبلور في النهاية في صورة قيادة حكيمة لأبنائكما"

" لكن لا تنس يا عزيزي أن القوامة لك ، وليس معنى القوامة أن تمارس سلطتك على امرأتك كما يعتقد الكثيرون ، ولكن معناها

أن تكون قدوة لها ومعلمًا لها

وأن تستقي قوتها منك انت ، فلابد أن تكون الكلمة كلمتك ، ولابد أن ترى قوتك ورجولتك في كل الأمور"

" لكنها ليست أمرًا سهلاً على كل حال"

" بالفعل .. لكنه ضروري لكي تستقيم الحياة . فالمرأة كائن ضعيف ، تحتاج لقوة الرجل التي تشعرها بأنها في أمان .

وعليك أيضًا أن تبدأ مع أبنائك في التمهيد وبناء جسر من المحبة"

" وكيف ذلك ، إن هذا ما أتمناه يا مراد"

" تقبلهم في كل شيء ، وأظهر لهم اهتمامًا ، وتجاوب معهم فيما يفكرون ، ولابد أن تعرف أن هناك فارق بين أن تتقبلهم وبين أن ترضى عن أفعالهم ، أن ما أقصده هو أن تتقبل تفكيرهم لا أن ترضى عنه وتقره"

" ولكن ما يفكرون فيه لا أقبله حتى ولا أتصور أن أتقبله"

obeikandl.com

" إن لتفكيراتهم اعتقاد سليم في أذهانهم أليس كذلك ؟"

" بالطبع لكنه تفكير غير سليم"

" وكيف ستقنعهم ؟ هل تستطيع إقناعي بشيء مالم أقتنع بك أنت شخصيًا ؟ ، ولن أقتنع بك حتى تهتم بي ، عليك الاهتمام بما أعتقده ، وأبناؤك اعتقادهم قاصر لأنهم صغار ، وقد كنا صغارًا ونحمل الكثير من الأفكار غير الصحيحة أيضًا"

" بالفعل ، ولكن أخبرني بمثال ... ماذا عليَّ أن أفعل مع أبنائي وأفكارهم الغريبة التي لا أستسيغها"

" حدثني عن ميول كل واحد منهم باختصار"

" ابني الصغير يحلم بأن يصبح لاعب كرة ، وليس له أي اهتمام إلا بالكرة ولاعبيها ، فماذا أفعل معه ؟"

" أقول لك إن ما عليك عندما تريد أن تبني جسرًا معه عليك أن تبدأ بنقطتين :

الأولى : أن تشاركه الاهتمام ، بمعنى أن تشاهد معه مباراة ما وتحاول أن تتحدث معه حول تلك الأمور .

obeikandl.com

الثانية : أن تغير تفكيره ، أن تضع له نظارة أخرى غير التي يرى بها .

" أضع له نظارة أخرى ، وكيف ذلك ؟"

" لماذا يحلم أي ولد من أولادنا بأن يكون لاعب كرة ؟"

" من أجل المال والشهرة ، وما إلى ذلك"

"بالضبط ، هذه هي النظارة التي يرى بها وكل ما عليك بعد بناء جسر بينك وبينه أن تعدل له النظارة ، وتذكر أنه لن يسمح لك بتعديل نظارته التي يرى بها حتى يتقبل رأيك ، إن الإنسان لا يسمع لغيره لأنه على صواب ، بقدر ما أنه يحبه ويقدره لذا يستمع إليه"

" وكيف أعدل له نظارته تلك ، بعد بناء جسر من التقبل بيني وبينه كما ذكرت"

" أن توضح له أن العلماء على سبيل المثال هم أكثر شهرة ومالاً من اللاعبين ، كما أن لهم دورًا فعالاً في المجتمع ، وليس معناه أننا ننقص من قدر اللاعبين كأشخاص ففيهم النافع أيضًا ، لكننا نريد أن نعدل نظرته فقط"

obeikandi.com

"بالطبع هناك من اللاعبين من هم على خُلُق ، لكنني لا أريد له هذا المجال بل أريد له مجالاً آخر ، فطريق العلم يفتح له ذراعيه ، فله عقل متقد الذكاء ، يكاد يصفه معلموه بالعبقرية ، فقط لو يزيد تركيزًا"

" سيزيد تركيزه ناحية العلم لو وجد فيه ما يشتهيه ، وما يأمل في تحقيقه"

" وماذا عن ابنتي " هدى" ، كل حياتها مع قصص الخيال والروايات العالمية وتسأل عن كل شيء ، حتى أننا نسميها أفلاطون البيت ، لا تستطيع أن تحدثها إلا وتفاجأ بأسئلتها تنهال عليك من حيث لا تدري"

" نفس الخطوتين : بناء جسر من التقبل والاهتمام بينك وبينها، بأن تشتري لها قصة من تلك القصص وأن تمدح تفكيرها فهو تفكير على كل حال ، فالإنسان القارئ أفضل من غيره .

ثم بعد ذلك : خطوة تعديل النظارة ، وتتم بأن تبين لها أن هناك ما يستحق القراءة وأن المكتبات تحتوي على ملايين الكتب في مجالات شتى .

openkandil.com

" وماذا عن الأسئلة التي تمطرنا بها ؟"

" اسألها أنت دائمًا ، واجعل أسئلتك مفتوحة تستدعي فكرًا، مما يجعلها تحترم تفكيرك وتقتنع بأنه لابد من أن توسع مداركها وتلجأ لك"

"لا أعرف أن كنت أستطيع فعل ذلك أم لا ، لكن الأمر يستحق التجربة بحق ، وماذا عن رامي ، ذلك الكائن الذي يعيش معي في البيت"

بضحكة عالية قال : " كائن ؟"

" نعم ، ألا ترى تصفيفة شعره التي تشبه الديوك ؟ ألا تراه ساهرًا طوال الليل أمام الإنترنت ، إنه كائن حاسوبي إنترنتي متقوقع لا صلة له بعالم البشر"

مع كل كملة من كلماتي تزيد ضحكاته ، إنني لا أبالغ بالفعل إنني أعني كل ما قلته .

" هل أنت مستخدم جيد للحاسوب ؟"

" كلا ، وإنما مستخدم عادي "

" ألا تريد أن تكون مستخدمًا جبدًا للحاسوب "

" بالطبع "

" طريقك لبناء جسر من التقبل بينك وبين " رامي " أن تعزم على أخذ دورة تدريبية في الحاسوب وتطلب من رامي أن يمدك بالمعلومات اللازمة من حيث المكان والأسعار وتخبره أنك سألته لأنه محترف في هذه الأمور ، أو لنقل خبير الحاسوب بالبيت "

ابتسمت رغمًا عني ، وقلت :

" خبير الحاسوب ، إنني لم أمدحه مرة واحدة في حياته ، بل وكنت أتهم الحاسوب بتخريب عقله "

" لكنك الآن تفهم تفكيره ، إنه يرى الحاسوب بنظارة غير نظارتك "

" فهمت ما تقول ، وإنني لأتخيل ما كنت أفعله سابقًا ،

obeikandl.com

وأتعجب من تفكيري لقد كنت أحفر فجوة عميقة بيني وبين أبنائي دون أن أدري "

" والخطوة التالية سنتركها لما بعد فقد حان وقت الرحيل اليوم وسألقاك بعد ثلاثة أيام ، هل ستبقى في المستشفى أم ستخرج ؟"

" سأخرج إنني أتحرق شوقًا لتطبيق ما تعلمته ، إنني أمتلأ طاقة ونشاطًا"

" وفقك الله"

وودعني وذهب ، وأنا أعد العدة لخروجي غدًا وملاقاة أولادي الأعزاء ، ما هذا لقد أصبحت أحبهم بحق .

وقضيت ليلي أحلم ببناء جسور مع أبنائي وزوجتي ، ومضينا نمرح ، ونلهو ونعبر تلك الجذور ، ونحن في قمة السعادة ، تغمرنا مودة ورحمة من فضل الله عز وجل .

obeikandl.com

التطبيق الأول

عندما مرَّ عليّ الطبيب صباح اليوم التالي ، وأخبرني أنَّ صحتي تتحسن كثيرًا مع مرور الوقت، وتبادل معي بعض عبارات مرحة، سألته هل خروجي سيكون مناسبًا الآن ؟ فقال لي :

"لا مشكلة ، فقط عليك أن تبتعد عن الانفعالات وأن تحاول تغيير نمط حياتك".

"فأخبرته أن الأمور ستسير إلى الأفضل ، وأن التعب الذي مر بي قد علمني كثيرًا"

"أتمنى ذلك". وتركني وانصرف ، وغادرت المستشفى .

لا أخفي عليكم أنني وأثناء خروجي من المستشفى كنت متحمسًا لرؤية أهلي ، متحمسًا لبداية جديدة مع نفسي وزوجتي وأبنائي ، لذا كان أول شيء فعلته أن عرجت على مكتبة من المكاتب العامة واشتريت كتابًا لي، واشتريت ورودًا لزوجتي ، وكم كنت في غاية السعادة وقتها، وأنا أنتقي لها ورودًا وأدفع حسابها ، واشتريت لابني الصغير أسطوانة

عليها الحياة الخاصة لأفضل لاعبي العالم ، ولابنتي الصغيرة اشتريت لها لعبة ممتعة، واشتريت لابنتى الوسطى قصة من تلك القصص التي تحبها ، واشتريت لابني الأكبر بعض لوازم الكمبيوتر التي كان يطلبها وكنت أمانع شراءها ، وعدت لبيتي يملؤني شعور بالسعادة ، ناسيًا فراغ جيبي من الأموال .

كان الجميع في انتظاري فقد أخبرتهم بخروجي ، لكني طلبت منهم عدم الحضور للمستشفى لأني أريد أن أعود للبيت وحدي، وكم كانت مفاجأتهم لما رأوني قد عدت محملاً بالهدايا لهم، شعور غريب انتابهم وهو مزيج من الدهشة وعدم التصديق ، بل واتهام أعينهم بأنهم في حلم ، ورأيتهم ينظرون لبعضهم نظرات غريبة ، وكأنهم يريدون التأكد من حقيقة ما يحدث أخذت كل واحد منهم في أحضانى ، وكم كانت دهشتي من حلاوة اقترابي منهم ، وطبعت على جبين زوجتي قبلة حانية ، وأخبرتهم جميعًا أنني قد اشتقت إليهم ، وقد كانت أيامًا صعبة تلك التي قضيتها في المستشفى بعيدًا عنهم ، وأعطيت لكل واحد منهم هديته وكنت أسأله هل أنت راضٍ؟ فكان كل واحد يجيب بالإيجاب وهو يحملق فيّ ، ثم قلت بأعلى صوتي : "وهذه الورود لأمكم زوجتي الحبيبة ، أسأل الله أن يحفظها لنا" وقدمت الورود لها أمام الأبناء .

لقد كنت كمن يعيش حلمًا، فالأولاد ينظرون لبعضهم غير مصدقين، وزوجتي حتى لا تفهم ، وارتسمت علامات الدهشة وعدم التصديق على وجوههم وسرعان ما أخذ كلٌ منهم هديته ودخل غرفته سريعًا .

وبقيت أنا وزوجتي وهي ما تزال لا تصدق ما يحدث هي الأخرى فبادرتها لأزيل عنها شكوكها بقولي :

"هل تعرفين حديثًا قاله رسول الله صلى عليه وسلم " إن أحبَّ الرجل زوجته أكرمها" . فقالت : " لا"

قلت : " ها قد أخبرتك به قولاً وفعلاً ، فأنا أحبك لذا أكرمتك بهديتي تلك ، وإن كنتِ أكبر من أي هدية ، لكنها هدية بسيطة"

" أكرم ، هل أنت على ما يرام ؟!"

قلت بابتسامة براقة تملأ وجهي : "ماذا تقصدين . هل أبدو غير طبيعي ؟" وذهبت ونظرت في المرآة ، وتفحصت نفسي ، وقلت : "إنني أبدو طبيعيًا جدًا على ما أعتقد ، فأذناي في مكانهما ، وأنفي وفمي على ما أظن ، وعيناي مازالتا اثنتين ، وشعري في مكانه ، كما أنني لم أفقد عقلي"

openkandil.com

ضحكت ، ثم قالت :

"ليس بالضبط ، ولكن هناك تغيير في أسلوبك وطريقتك ، إنني لم أرك تبتسم ابتسامة كهذه منذ زمن ، ولم أسمع منك دعابة منذ أيام تعارفنا الأولى ، فضلاً عن هداياك التي أصابت الجميع بالدهشة ، فنحن لم نتعود منك هذا ، ولو أخبرتك أنني كنت جالسة مع الأولاد قبل مجيئك نتفق على الكيفية التي أريد منهم أن يعاملوك بها بعد عودتك حفاظًا على صحتك ، لتعجبت كثيرًا من ردود أفعالهم، وصدقني لقد أذهلتنا بما فعلت"

لا أكذب عليكم إن قلت أنني لم أكن مسرورًا ومبتهجًا ، بل وأشعر بالزهو والفخر، ولم يمض وقت حتى جلسنا معًا على طاولة الطعام ، وصرت أحكي لهم بعضًا من ذكرياتي ، ومواقف طفولتي، وضحكوا وضحكت معهم ، وامتلأ الجو بهجة وسرورًا ، ومن وسط تلك الضحكات أعلنت لهم اعتذاري ، بل وأرجو من الجميع أن يقبل أسفي على أي خطأ بدر مني تجاه الجميع .

خيم الصمت والوجوم على الكل ، الكل تفاجأ مما قلت ، فهم وإن تعجبوا من أفعالي وطريقتي معهم ، إلا أنهم لم يتخيلوا أن أعتذر لهم

هكذا بكل بساطة ، وكانت نظراتهم اكبر دليل على دهشتهم ، وكان أول من تكلم هو رامي ابني الأكبر فقال :

"بابا ، ماذا حدث ؟، إننا متعجبون من طريقتك الجديدة بكل صراحة ، إنك لم تجلس لتتكلم معنا منذ زمن ، ولم تشتر لنا هدايا أيضًا"

" وماذا ترى يا رامي ، هل طريقتي القديمة أفضل أم الآن ؟"

صاحت ابنتي الصغيرة وابني الصغير قائلين :

" الآن طبعًا ، نريدك أن تكون هكذا دومًا"

"وماذا عنك يا رامي أنت وهدى ؟ ، لم أسمع رأيكما"

عدَّلت هدى نظارتها ، وتنحنحت وكأنها تلقي محاضرة قائلةً :

"لا أعلم ، لكن عمومًا سيكون الوضع أفضل لو تركت الحرية لكل واحد يفعل ما يريد"

ابتسمت وقلت لها : "إن أسلوبك رائع يا هدى فأنت تتكلمين بمنطق ، وتفكرين في كل ما تنطقين به" وللحق أقول أنني أعني ذلك

obeikandl.com

بحق ، فأنا لا أكذب بالتأكيد فقد كنت قديمًا أرى الأمر من وجهة نظري فقط أن هدى تتفلسف وليس عندها أي فكر أو منطق ، لكنني لما جئت أفكر في كلامها رأيت أن لها منطقًا بالفعل حتى وإن كنت غير مقتنع به إلا أنه تفكير لابد أن يُحترم ، وهذا أمر جيد فقط تحتاج إلى توجيه فكرها إلى طريق صحيح .

رأيت نظرة استنكار على وجهها ، لأول مرة تسمع مديحًا مني على أسلوبها ، ثم قلت : "سوف أجلس وأستمتع بالحديث معك يا هدى كثيرًا ، وأريد أن أسمع رأي رامي"

قال رامي بأسلوبه الشبابي المعهود ، وهو يرفع لي أصبعه الإبهام دليل على أن الأمور جيدة : "كله جميل" وهي كلمة دائمًا ما يقولها لكي يبعد عن نفسه أرق التعبير عن أي شيء .

لكنني أعدت عليه الأمر قائلاً : "لكني أريد بالفعل أن أعرف رأيك"

"يا بابا ، إنني فقط متعجب من هديتك، إن هديتك توثق صلتي بعالم الكمبيوتر ذلك العالم الذي كثيرًا ما كنت تعاتبني

على المبالغة في التعامل معه ، لكن لو أنك ستصبح راضيًا عما أفعل، فهو أمر جيد"

"دائمًا سأكون راضيًا عنك ، والكمبيوتر أصبح هامًا هذه الأيام"

وأنهينا الطعام وقاموا وتركوني لكي أستريح بعض الوقت ، وأكملت حديثي مع زوجتي التي سألتني : " أخبرني يا أكرم ماذا هناك ؟ إن الأمر يبدو غريبًا جدًا عليّ وعلى الأولاد"

" لنقل أنني كنت معصوب العينين ، لم أكن أرى جيدًا ، كنت أرى الأمور بشكل خاطئ ، لكن الآن الأمر قد اختلف، وأصبحت رؤيتي أفضل"

شكرتني زوجتي على هديتي لها ودمعت عيناها فقلت لها : "أريد منك أن تقبلي اعتذاري على ما كان مني من أخطاء في حياتي معك"

زادت كلماتي لها من تأثيرها فقالت هي الأخرى "وأنا أيضًا أقدم لك اعتذاري"

obeikandl.com

وكان اليوم من بعدها رائعًا ، وقد امتلأ الحديث بيننا بدفء المحبة والمودة ، ما أجمل أن تنجح داخل بيتك، وما أجمل أن يكون الحب هو لغة الحديث مع زوجتك وأولادك .

وفي صباح اليوم التالي ناديت ابنتي الصغرى مها صاحبة الخمس سنوات ولعبت معها وحكيت لها قصة من القصص التي كان يحكيها لنا جدي عندما كنت صغيرًا ، قضيت معها حوالي نصف ساعة في غاية المتعة ، واستمتعت معي كثيرًا ، وقبلتني بعدما انتهينا وقالت لي : " أحبك كثيرًا يا بابا هل ستلعب معي دومًا ؟"

"عندما أستطيع وأملك الوقت سألعب معك ، اتفقنا ؟"

"اتفقنا" وتركتني وانصرفت .

كان التلفاز أمامي يدعوني لأن أقوم بفتحه، لكنني تذكرت ما اتفقت عليه مع ملهمي وكأني رأيته أمامي يقول لي :

والتلفاز احذره وحشـًا على الفكر يُطبَقُ فكَّـاه

وأمسكت كتابًا وبدأت في قراءته، وأثناء القراءة جاءتني ابنتي هدى وجلست بجانبي وقالت : " ماذا تقرأ يا أبي ؟"

" أقرأ كتابًا عن عجائب الدنيا"

" وهل تهتم بهذه الأمور ؟"

وضعت الكتاب جانبًا والتفت لها وقلت لها اجلسي بجانبي، ولما جلست تحدثت معها قائلاً : " القراءة حياة للإنسان ، الإنسان الذي لا يقرأ إنسان ميت"

أعجبتها كثيرًا تلك العبارة ، والتي قد استعرتها من كلام معلمى وملهمي وعقبت هدى على حديثي قائلةً : "هل تقصد أن الإنسان عليه أن يقرأ كثيرًا ؟"

"بالطبع ، فكلما قرأ الإنسان كلما ازدادت خبراته في تلك الحياة"

" وماذا عن قراءة تلك القصص التي أقرؤها ؟"

وصلت للنقطة التي تريدها هي، وعيناها تثقبني من الداخل، وتنتظر ردي بكل كيانها ، وكأنها تريد أن تتأكد من رأيي فيها .

" كل القراءة مفيدة يا "هدى" ، والقصص التي تقرئينها مفيدة أيضًا، ولكن على الإنسان أن يوسع مجال معرفته، أليس كذلك؟"

obeikandl.com

عقدت حاجبيها وألجمتها الدهشة ، فهاهي تسمعني لأول مرة أمدح في القصص التي تهواها ومازاد دهشتها أنني قلت لها : " سأعطيكي مبلغًا من المال لتشتري قصة تحبينها من تلك القصص ومبلغًا آخر لشراء كتاب في مجال مختلف ، وبذلك تتوسعين في مجال معرفتك " ولم أترك لها مجالاً للتفكير أو الاعتراض وبادرتها بسؤالي : " ففي أي مجال ستختارين كتابك ؟"

" اختره لي أنت يا والدي"

"حسنًا سننزل غدًا ونشتريه سويًا ، ونشتري أيضًا قصة تحبينها"

اقتربت مني ابنتي وطبعت قبلة على جبيني واخبرتني بحبها ، وانصرفت .

يا إلهي ، إنني سعيد جدًا، كيف حرمت نفسي من كل هذه المشاعر الأبوية قديمًا؟ ، وكيف ضاعت سنوات عمري السابقة على تلك الخلافات داخل بيتي وأنا الذي كنت أعتقد نفسي على طريق سليم ؟ لكنني لم أشعر بتلك السعادة من قبل، شعور رائع أن تكون قريبًا من أبنائك .

obeikandi.com

وجلست مع زوجتي لنقيِّم حياتنا لكنها بادرتني بقولها : " نقيِّم حياتنا ؟! ، ماذا تعني بتلك العبارة ؟"

" أعني أنَّ علينا أنْ نعيد النظر في جوانب حياتنا المختلفة ، بداية من علاقاتنا الزوجية نهاية بعلاقاتنا مع أولادنا ، هل نجحنا في كل ذلك؟ ، هل تشملنا المودة والرحمة ؟ ، هل يجمعنا الحب والاحترام؟"

" إن ما تقوله جميل جدًا ، لكن .."

قاطعتها قائلاً : " الأمر غريب بالنسبة لك ، لم تتعودي ذلك مني من قبل ، وتشعرين بالدهشة ، أليس كذلك ؟"

بابتسامة خجولة قالت : "نعم ، وإن كنت سعيدة لسماعي ذلك، فأنا أتمنى أن تنصلح حياتنا وأن ننجح في تربية أولادنا"

"إذن لابد لنا أن نتفق على أساسيات في حياتنا تكون عهدًا بيننا، لأنَّ أولادنا يروننا قدوة لهم، فإن أسأنا التصرف أمامهم ، نكون قد أعطيناهم قدوة سيئة"

obeikandl.com

"وهذا ما كان يحدث بالفعل، هل تذكر كلام "هدى" الذي كانت تقوله لنا أنها لن تتزوج مثل زواجنا"

" لأنها كانت تجد أمًا وأبًا لا يتحدثان ولا يتفاهمان ، فقط كل ما بينهما حديث عابر، علاقتهما لا تعدو كونها علاقة مصالح مشتركة، لكن باتفاقنا مع بعضنا وبإعادة بناء علاقتنا سيتغير الوضع بيننا وكذا أمامهم ، مما سيطبع جوًا مختلفًا في البيت ، فهل توافقينني على ذلك؟"

" بالطبع أوافق"

وأمضينا أنا وزوجتي حوالي ساعة ونصف الساعة نتحدث عن كل ما نرى من شأنه أن يعدل علاقتنا في البيت ، وكذا مع أبنائنا ، وضعنا قواعد للعلاقة لا يتجاوز أحدنا إياها ، وضعنا حدًا لمشاهدتنا للتلفاز لا تتعدى ساعة يوميًا بأي حال من الأحوال ، وكذا علاقتنا بالناس لن تزيد عما أمر به رسولنا صلى الله عليه وسلم من خلال صلتنا لأرحامنا، أما العمل فقد وعدتها بألا يكون للعمل وجود داخل البيت، وكان أهم اتفاق اتفقنا عليه هو اختلافنا ، وشرحت لها ما أرشدني إليه ملهمي " مراد"، وكلما مضيت معها متحدثًا كانت تصغي إليّ وكأنها

obeikandl.com

لا تستوعب أو حتى تصدق كلامي وما أن انتهيت حتى قالت لي : "هل ما قلته سهل الحدوث بالفعل ، أعني هل هناك من يفعل ذلك في هذه الحياة ؟"

" بالطبع هناك من يفعل، وقد قابلت واحدًا منهم ، وسنفعل نحن ذلك ونقدم نموذجًا صالحًا لأبنائنا ، ألا تودين ذلك ؟"

" ومن لا يريد؟! ، لكني لم أقابل أحدًا يتكلم هذا الكلام من قبل"

" لكنه أمر جيد يا عزيزتي وسوف نتعاهد على تطبيقه حتى نسمو بحياتنا"

عاهدتني والشك يملأ كيانها ويتضح في نظرات عينيها ، لكني طمأنتها بأن كل شيء سيتغير للأفضل .

وبعد قليل رأيت ابني "أحمد" يمر من أمامي مسرعًا فسألته : "لم أنت متعجل هكذا ؟"

فقال : " هناك مباراة هامة ولا أريدها أن تفوتني"

" هل من الممكن أن أشاهدها معك"

obeikandi.com

" أتمنى يا أبي "

قمت وشاهدتها معه ، ومضى يحدثني أثناء المباراة عن هذا اللاعب وذاك اللاعب وأنَّ كل واحد يباع بالملايين ، ويكلمني عن الدوري والنقاط، والعديد من الأمور المتعلقة بالمباراة ، وأمضينا وقت المباراة ونحن نستمتع كثيرًا بوقتنا وهو لا يصدق ما يحدث تقريبًا ، وبعد انتهاء المباراة قلت له : " لقد استمتعت بحديثك أثناء المباراة ، من الواضح أنك مثقف جدًا فيما يخص الكرة"

"أتمنى أن أصير لاعب كرة"

"ولماذا ؟"

" لأنهم يحققون شهرة ومالاً وفيرًا"

لو كان حالي كما هو سابقًا لمضيت أنصحه وأوجهه وما إلى ذلك، بل وأصب عليه جام غضبي ، لكني تعقلت وأردت أن أغير طريقة تفكيره كما أخبرني مراد فقلت له : "هل تعتقد أنهم يحققون مالاً وفيرًا بالفعل ؟"

"بالطبع ، وهل هناك من يحقق مثلهم في الدنيا ؟"

obeikandl.com

فقلت له وقد ساعدتني معلوماتي : "لكنَّ أغني عشرة في العالم هم .... وذكرتهم له ، وليس فيهم لاعب كرة واحد ، ثم قلت له هل تعرف الدكتور .... إنَّ دخله أكبر من اللاعب .... بكثير ، وهل تعرف صديقي ... إنه يتقاضى راتبًا ضخمًا ، لكن لا بأس في أن تصبح لاعب كرة"

ونظرت لعينيه وقد بدا عليهما التردد وهذا ما أردت أن أزرعه بداخله، لم أستعمل أسلوبي القديم، وإنما وسَّعت مداركه بتعديل نظارته، وكم كانت دهشتي أنني شعرت به من داخله وكانت الدهشة تملؤه من الداخل .

وقبلته في وجنته وسألته : "هل رأيت الأسطوانة التي أحضرتها لك ؟ هل أعجبتك ؟ إذا أردت غيرها أخبرني ، وإن أردت أن أشتري لك أسطوانة عن مشاهير العلماء في العالم لكي تتعرف على سيرتهم وكذلك على حياتهم فأخبرني " وتركته وقبل أن أذهب التفت إليه وقلت : " نسيت أن أخبرك أنَّ العلماء أكثر شهرة من اللاعبين أيضًا، وأثرهم واضح في حياة الناس على مر العصور" .

في اليوم التالي قمت صباحًا وقبل أن أغادر لعملي عرجت على كل

obeikandl.com

ابن من أبنائي وقبلته قبلة على جبينه وكان الجميع نائمًا إلا رامي بالطبع فإنه يظل ساهرًا مع الكمبيوتر والإنترنت حتى الصباح ، ولما رآني تجهز لمحاضرة من محاضراتي عن صحته التي يهدرها ووقته الذي يضيعه في تفاهاته تلك لكنه تفاجأ بي أقبله في جبينه وأمضي ، وقبل أن أغادر غرفته قلت له : "رامي أريد أن أستشيرك في أمر يخص الكمبيوتر له علاقة بعملي ، ذكرني عندما أعود"

"حاضر يا أبي"

وانصرفت وأنا ممتلئ فخرًا وزهوًا بأسلوبي مع أبنائي وقبلت زوجتي في جبينها وغادرت المنزل إلى العمل ، وقضيت يومي في العمل بكل نشاط وقوة ، عملت كما لم أعمل من قبل ، استثمرت وقتي كله في العمل وشعرت بإنجاز أرضى عنه بالفعل ، وعقدت العزم على الاستمرار في ذلك التغيير الذي أعادني للحياة مرة أخرى بعد أن كنت على لائحة الانتظار كما كنت أقول من قبل، ما أجمل أن تشعر بأن هناك من تحبه وتعمل من أجله .

وقابلت مراد أثناء العمل ، وأكد ميعادي معه غدًا وبنظرة سريعة لوجهي قال :

"إن السعادة ترتسم على وجهك يا صديقي"

ابتسمت وقلت " شكرًا لك ، إنني أشعر شعورًا مختلفًا بصدق"

" ودائمًا بإذن الله ، أراك غدًا"

وبينما أنا عائد لبيتي استثمرت وقتي في السيارة في ذكر ربي وقد وفَّر عليَّ ذلك كثيرًا جدًا ، حيث لم أنفعل كسابق عهدي أثناء القيادة على السائقين بجواري ، بل وكنت أرى كل شيء نعمة من الله، فذلك الطريق نعمة وتلك السيارات أيضًا ، كل هذه النعم لا نراها ولا نحمد الله عليها ، وعدت لبيتي وأنا في حالة نفسية مستقرة ، مستعد ليوم رائع مع زوجتي وأبنائي .

دخلت البيت فقبلت زوجتي على جبينها ، وقابلتني ابنتي الصغيرة بيدين مفتوحتين فحضنتها ، وقبلتها وأخبرتها بأنني قد افتقدتها ، ثم ذهبت لأحمد في غرفته فوجدته يمارس هوايته بلعب الكرة ، فقبلته ، وذهبت لغرفة هدى فوجدتها نائمة فقبلتها ، لكنها استيقظت وقالت لي: " أبي ، هل سنذهب سويًا اليوم كما وعدتني ؟"

" بالتأكيد يا حبيبتي"

أما رامي فلم يكن موجودًا ، وأثناء الغذاء مضيت أطلب من كل واحد منهم أن يحكي لي قصة طريفة مرت به في حياته ، واستمعت لهم جميعًا وقضينا وقتًا مبهجًا وضحكنا كما لم نضحك من قبل .

وفي الليل خرجت أنا وهدى وذهبنا لمكتبة تبيع الكتب والقصص واشتريت لها قصة تفضلها ، واخترت لها كتابًا عن الفضاء ، وسعدت كثيرًا ، ولما عدنا للبيت سألتني قائلة : " أبي ، هل ستظل هكذا أم ستعود لسابق عهدك ؟"

"وماذا تفضلين ؟ أن أبقى هكذا أم أعود لسابق عهدي ؟"

"بالتأكيد هكذا"

"ولماذا ؟"

"لأنك تحبنا الآن كثيرًا"

"وقبل ذلك ، ألم أكن أحبكم ؟"

ولدهشتي أنها انتظرت وكأنها تفكر هل كنت أحبهم أم لا وعقدت حاجبيها وقالت : "لا أعلم ، المهم أنك الآن أفضل أب في الدنيا"

obeikandl.com

فطبعت قبلة على جبينها وقلت : " وأنتي ابنتي العزيزة ، بارك الله فيكي وحفظكي الله لنا ، وبارك في عقلك "

وعدت لأجد زوجتي بانتظاري وهي تقول : " أكرم ... الأولاد منبهرون بتغييرك ، وأريد أن أتغير معك ، لقد سهرت الليل أفكر في كلامك ، وأنا على استعداد للبدء معك وبكل كياني "

استمر حديثي معها لمدة ساعتين وشرحت لها ما علينا فعله ، ما علي أن أفعله وما عليها أن تفعله ، وانبهرت كثيرًا لكلامي وطريقة تفكيري وقالت : " إنني لم أسمع هذا الكلام من قبل ، وأعتقد يا أكرم أننا لو طبقناه بالفعل سنكون أفضل قدوة لأبنائنا ، فنحن لم نكن هكذا من قبل "

"ليس هذا فقط وإنما كنا نمثل لهم قدوة سيئة"

واتفقنا وعاهدنا ربنا على الإحسان لأبنائنا .

ومضى اليوم ، ولم أخرج لأرى أصدقائي بل وباللعجب لم أشاهد التلفاز ، أي تلفاز الآن ليس وقته ، إن حياتي صارت أهم من ذلك الجهاز ، وقبل نومي مضت زوجتي تحكي لابنتنا قصة قبل نومها – كما اتفقنا – وقضيت أنا وقتًا قصيرًا مع رامي الذي سألني " لقد كنت

obeikandl.com

تريد مني شيئًا عن الكمبيوتر يا أبي فما هو ؟"

"لقد أردت أن أزيد خبرتي في الكمبيوتر ، ولما كانت معلوماتي عن المراكز التي أستطيع من خلالها الحصول على الدورات التي أريدها قليلة ، قلت لنفسي ولم لا أسأل عبقري الكمبيوتر الذي في بيتي ، فهو أكثر أقدر من يستطيع إفادتي"

انعقد لسانه وهو يحملق في ولا يعرف هل ما قلته مدح فيه أم هو سخرية لاذعة كما كنت أفعل من قبل وقال : "سأبحث وأخبرك لكن في أي مجال تريد أن تحصل على دورات ؟"

" فقط في مجال الاستخدام العادي"

" إذن سأبحث وأخبرك"

شكرته وطبعت قبلة على جبينه وقلت له "رامي ، سامحني إن كنت أسأت التعامل معك فيما سبق"

" حسناً يا أبي" .

خرجت من عنده وأنا أحمد ربي وأشكره على تلك النعمة العظيمة

التي اختصني بها ، فما أجمل أن تشعر بدفء الدب يغمر علاقتك بأبنائك ، وأنا الذي افتقدت ذلك لسنوات طويلة ، سنوات طويلة تنحيت فيها جانبًا ، فزادت الفجوة بيني وبين أبنائي ، حتى صرت لا أعرف عنهم شيئًا ، وقد تعجبون من كلامي هذا ، لكنه وبكل صدق، وصف لما يعتمل داخلي من صراع ، نيران ملتهبة ، تنزل عليها تلك الكلمات البسيطة السابقة ، كالماء الرقراق منسابًا على تلك النيران المتأججة .

obeikandl.com

من قصيدة " كن أبًا ولا تتنح جانبًا"

خـذ مني أدوات خـمسًا أعد لأمـــر تتخــطـاه

ناقــش أولادك مجتـمعًا والخطـأ تحمـــد عقـباه

سلطتك كي تعطي قرارًا وتجبـــر ولدًا قد يأبــاه

وبلا شـــرط تمنح حبـًا يفوق الحد ويصل ذراه

obeikandl.com